مجلة أنساق للفنون والآداب والعلوم
الإنسانية
الإصدار الخامس
المجلد (٢) العدد (٣)
٢٠٢١ (١٣٦-١٤٧)

مجلة أنساق

Middle East Institution of scientific Publishing

الموسيقى بين المادة والجوهر

اسماء الماجد

باحثة في العلوم الثقافية والموسيقية، ماجستير موسيقى وعلوم موسيقية،

المعهد العالي للموسيقى، جامعة تونس، ***تونس***

البريد الإلكتروني: ***Majed.asma.music@hotmail.fr***

نشر إلكترونياً بتاريخ: ٢٠٢١/١٠/٣٠

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License.

الملخص

تبوئت الموسيقى منذ القدم مكانة هامة بين العلوم ولعل ما يميزها ولا يمكن أن يتحول بفعل الزمن أنها تلك المادة المحسوسة-من الحواس- والمحسوسة -من الحس- شيء ما يقع خارج فضاء الجسد وداخله ويثير عديد الانفعالات والإشكاليات في علاقة بالذات وبالآخر وبالوسط المادي نفسه. أما من المنظور السيكولوجي الحديث فهي أداة للتواصل ومفهوما جوهريا عمل العلاج النفسي على استعمالها كوسيط بين المتلقي عموما والمتقبل. الموسيقى بين المادة والجوهر هي بحث متواضع في ماهية الصوت وعلاقته بالذات البشرية من الناحية النفسية والعصبية والأنثروبولوجية والجمالية ولعل حقيقتها المطلقة الكامنة في كل هذه الزوايا تبقى من بين أسرار سحر خلق هذا الكون.

الكلمات المفتاحية: الموسيقى، الصوت، المادة، الجوهر، التأثير، العلاج بالموسيقى

Abstract

Music has an important place among sciences since early human history. Perhaps, the most important thing that makes it special is it nature as a sensed substance. Music takes place inside and outside the human body and causes vibrational changes. It affects our energy field and the way that we perceive ourselves, others and our surrounding. In modern psychology, it is considerate as a communicative system. It creates a connection. Psychotherapy has used music to connect the sender and the receiver.

Music is a way to explore our voice range, depth and meaning. It affects us intellectually, psychologically, anthropologically and esthetically. Music is an unlimited art form. It is magic.

Keywords : Music, voice, Matter, substance, Impact, Music therapy

*** مقدمة**

تعتبر الموسيقى من أهم وسائل العلاج النفسي الحديث والتي تنطوي تحت قائمة العلاج بالفنون في الطب البديل عامة والتي تتضمن أيضا المسرح والرقص والرسم وكل أشكال الممارسات الفنية.

منذ القدم لم ينفك العلماء عن البحث في أثر الموسيقى على النفس البشرية، حيث بدأ الباحثون في وضع أسس منهجية لهذا العلم منذ بداية النصف الثاني من القرن الماضي، فاعتبر جاك جوست[1] الموسيقى من ضمن التقنيات الضرورية لتطوير الإبداع والخلق وظل البحث متواصلا إلى أن أصبحت جل البحوث المعاصرة تعتمد في معظمها على الجانب التطبيقي والدراسات الإكلينيكية المتعلقة بالباثولوجيا بشكل خاص وهو ما يحسب اليوم للعلوم الموسيقية.

تعتمد هذه البحوث على المنهج الوصفي والمنهج التجريبي، الأمر الذي يسمح بقياس النتائج والتي تفضي الى تعميمها خاصة إذا ما تحدثنا عن أمراض التآكل العصبي مثل الزهايمر وغيره من الأمراض العصبية التي ينتج عنها تلف في الخلايا، ونشير هنا إلى دراسة مهمة قامت بها الباحثة شانيو[2] حيث قامت بدراسة مجموعات من المرضى مصابين بالزهايمر، خلصت الباحثة إلى أن المجموعات قد تحسنت حالتهم من خلال الاستماع، إلا أنها ومن خلال مناقشة النتائج أشارت إلى إشكالية مهمة، تتلخص في أنه لا يمكن الجزم أن المجموعة (أ) تحسنت أكثر من المجموعة (ب) وذلك تبعا لنوع وطريقة الإحاطة النفسية أو المرافقة النفسية.

[1] Jacques Jost, Jean Guilhot, Marie-Aimée Guilhot. Musique psychologie et psychothérapie : vers de nouvelles techniques de deconditionnement et de developpement de la creativite personnelle. Collection des sciences humaines appliquées : l'art de la psychothérapie Collection des sciences humaines appliquées. Éditions sociales françaises, 1964. Numérisé 11 sept. 2008, l'Université de Californie.

[2] Mathilde CHAGNEAU : une étude clinique sur l'efficacité de la musicothérapie auprès de personnes souffrant de la maladie d'alzheimer », paru dans Revue Française de Musicothérapie, Volume XXXVI, Les actes, **«** *Music'Al* **»,** une étude clinique sur l'efficacité de la musicothérapie auprès de personnes souffrant de la maladie d'alzheimer, mis en ligne le 06 décembre 2017, URL : http://revel.unice.fr/rmusicotherapie/index.html?id=3672.

وهذا يقودنا إلى التفكير في مناهج العلاج بالموسيقى حيث يجب الأخذ في اعتبار الفروقات الفردية في الثقافات نفسها، فمن غير المنطق أن نأخذ منهجا غربيا ونطبقه تماما في الثقافة العربية قبل تطويعه لما يتناسب مع احتياجات وإدراك الأشخاص.

من هنا نستنتج أهمية العمل على مناهج مغايرة للمنهج التجريبي في العلاج بالموسيقى نوظف فيها المنهج الاستقرائي والمنهج المقارن منطلقا من الخاص إلى التعميم يأخذ بالاعتبار خصوصيات الفرد واختلاف الثقافات والهويات حتى في نفس الثقافة.

ومن المهم أن يعتبر المنهج أيضا تنوع الموسيقى العربية باعتبار تعدد الأنماط والمقامات والإيقاعات وكل مكونات النص الموسيقي وما يتضمنه من دلالات سميولوجية ومن معان يتقبلها كل بطريقته حسب واقعه السمعي الموسيقي، لذلك يتوجب مراعاة الفروق الفردية إن كانت سسيولوجية أو ثقافية أو إنسانية تخص فردية وهوية الأشخاص.

يتشارك العلاج بالموسيقى إلى حد ما مع التدريب والتطوير الذاتي في التنمية البشرية فهو لا يتعلق بالأمراض النفسية العميقة فقط، إنما يساعد ويساهم في التحول النفسي والذهني للفرد ويدعم قدرته على التواصل مع ذاته ومع المجتمع، وهي في ذات الوقت الآلية التي تمكنه من التعبير عن انفعالاته الشخصية وأحاسيسه وكذلك السيطرة على النفس وكبح جماح المشاعر السلبية كالغضب والحزن وتعويضها بالمشاعر الإيجابية كالهدوء أو الفرح.

فماهي أهم تحولات الصوت وما مدى تأثيره على الذات البشرية فيزيولوجيا ونفسيا؟

ربما من الضروري أن نجيب اولا عن بعض الإشكاليات التي تساعد في فهم أعمق وإدراك أوسع لهذا الأمر:-

١- ما أثر الموسيقى على الذات البشرية؟

٢- أين تكمن الخلفية العلاجية للصوت في الثقافة العربية والعالمية؟

٣- هل تتعلق الدلالة الصوتية باللغة فقط بالفونولوجيا أم تتضمن نوع آخر من الدلالات؟

٤- أي نوع من الموسيقى هو الأكثر تأثيرا في النفس؟

*** الموسيقى بين المحسوس والمدرك: تأثيرها على الجهاز العصبي والهرموني**

تكمن القيمة الجمالية للموسيقى في صبغتها الذاتية أي في طريقة كل منا لإدراكها فهي تلك المادة الفيزيائية المحسوسة -من الحواس-التي تدخل الجسد بذبذباتها عبر الأذن وتتحول فيما بعد إلى جوهر منصهر مع النفس:-

يترجم الدماغ الرسائل الصوتية الموسيقية الى رسائل عصبية فيفرز الجسم عند التفاعل الإيجابي هرمونات الأندروفين[3] والسيروتونين[4] المسؤولين عن إحساسنا وشعورنا

[3] Parrouty. J : Stress et burnout : Renouveler son intelligence gérer ses émotions et mieux vivre, presses lulu, 2014, p.154.

[4] Scimec Daniel& Tétau Max: Votre santé par les huiles essentielles: simple et pratique, le

بالسعادة كما تؤثر عملية الإدراك على الجهاز العصبي وخاصة العمليات الدماغية التي تنشط مناطق مختلفة كالتلفيف خلف المركزي[5] في الفص الجداري المسؤول عن الإحساس والذوق والمنطقة الحسية للسمع في الفص الصدغي[6] حيث تُفكَّكُ إشارات الصوت ويتم التعرف على رموزها. ويبين الرسم التالي جل المناطق الدماغية المتأثرة بالموسيقى.

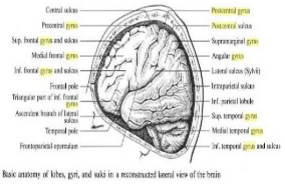

الرسم 1 :صورة لمختلف مناطق الدماغ المتأثرة بالموسيقى[7]

تتفاعل الأصوات في الجسم حيث يتجاوز الاستماع بعده المادي الخارجي المحسوس ليصبح استماع بكل أجزاء الجسد.

خلافا للمسارات العصبية لمخارج الأصوات وصناديقها المدوية الخاصة بكل مجال صوتي يتم استيعاب الأصوات الغليظة مثلا بأسفل الظهر وتخرج الأصوات المتوسطة الحدة من الصدر مما يجعل كل الجسم يخضع بأكمله للاستماع فيتحول بذلك إلى انصات واستيعاب جسدي إضافة الى البعد العصبي.

نشير إلى أن استيعابنا للموسيقى هو استيعاب كلي يدمج في الإنسان ثلاثة أبعاد (البعد العصبي والجسدي والنفسي) الأمر الذي يجعلها متناغمة فيما بينها. ويقتضي هذا الطرح فصلا بين ما هو جسدي وما هو عصبي باعتبار أن الأذن تتوسط عملية الإدراك وتربط بين ما هو جسدي لنقل حركي وبين ما هو عصبي نورولوجي.

إن الاستماع للمادة الموسيقية يجعل الجسد بكامله يعمل على إحداث توازنات عصبية شبيهة بمعادلات تحليلية تلقائية غير واعية ولكنها مفهومة تنشط جل المناطق الدّماغية لتكون رياضة عصبية ناجعة.

*** أثر الصوت في التراتيل القرآنية**

تحاكي الموسيقى الأنا بين المحسوس والمدرك فيندمج الصوت –وإن كان بغير لحن منظم– مع الذات البشرية لتصبح وحدة واحدة، وأفضل دليل لأثر الصوت هو العلاج بالقرآن الكريم فهو يعتبر مثالا حيا يحمل صفة الثبات والقدم في جميع الثقافات الإسلامية، إضافة إلى قدسية وجلالة النص القرآني وترتيلة يسهل الاستيعاب

يقول تعالى في الآية الرابعة من سورة المزمل: "أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا " وهنا تظهر الحكمة الإلهية، فالترتيل يعمل على تنشيط أغلب مناطق الدماغ مثل منطقة السمع والبصر والذاكرة والذوق والتحليل.

guide des huiles essentielles au quotidien, Alpen Editions s.a.m,2005, p.94.

[5] Wernwe, Own & Duncan, Executive control and the frontal lobe, Springer, berlin, 2000, p.26.

[6] Seikel J.A, King, D.W & Drumright, D.G.: Anatomy & Physiology for Speech, Language, and Hearing, Cengage Learning, USA, 2009, p.816.

[7] Seikel J.A, King, D.W & Drumright, op. cit.

حيث يعرف الغزالي تلاوة القرآن حق تلاوته في كتابه الأحياء بأنه:" أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب فحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل وحظ العقل تفسير المعاني وحظ القلب التأثر "[8]

يتعلم المقرئ قواعد التنغيم أي المقامات، فضلا عن قواعد التجويد وحسن الصوت، ليزيد قراءته تأثيرا وأناقة وجمالا. ونشير في هذا الصدد إلى تجربة بعض المؤسسات الإسلامية –الأزهر في مصر ووزارة الشؤون الدينية التونسية بالتعاون مع المعهد الرشيدي للموسيقى وبإشراف من الأستاذ فتحي زغندة– في إحداث دورات تكوينية للمقرئين في علم النغم حتى يستمتع السامع بالجانب الجمالي لكلمات الله عز وجل الأمر الذي ينمي ويدعم شعوره بمعاني المفردات.

يرتبط الترتيل بنوعين من الدلالات (اللفظية وغير اللفظية) حيث تعتبر الدلالات اللفظية معروفه ومفهومة وخاصة من قبل المختصين في العلوم الشرعية والمفسرين، أما الدلالات غير اللفظية فتعنى بالناحية الصوتية والبراغماتية للفظ.

أ– الدلالة اللفظية

يعتبر عاشور أن الدلالة نوعين لفظية وعقلية «فإذا كان الدّال لفظا كانت الدّلالة لفظية... وكل من الدّلالة اللفظية والغير لفظية تنقسم إلى وضعية وطبيعية وعقلية[9]»

ربما سميت الدلالة الوضعية نسبة لضرورة وضع الدال للمدلول أي الكلمة للمعنى وفيها وصف للحقائق والمفاهيم اصطلاحا وتبعا لذلك تسمى أيضا دلالة المطابقة بمعنى أن يطابق الدال المدلول تطابقا تاما بحيث لا يحمل المعنى أكثر من قيمته المادية ولا يؤول إلى معان أخرى مثل الأسماء العلم وتطابقها مع الشخص المنادى أو أن نسمي الأشياء بمسمياتها المتعارف عليها كأن نقول «هذه طاولة ». لا يقتصر مفهوم اللفظ، إذن في هذا الإطار، على معناه في المطلق أي على سياقه اللغوي فحسب ولكن أيضا على سياقه المعنوي أي مكانة اللفظ في الجملة وباعتبار ما يحيط به من أساليب رمزية إن كانت بلاغية أو تعبيرية نغمية.

وهنا لابد من الإشارة إلى تداخل المفاهيم بين اللغة والموسيقى فجمال اللغة وبلاغتها وحسن إدراكها يتأتى استقلابا من نَغَمِيّتِها أما عن الموسيقى فتوازن وتوافق النغم بشكل يتماشى مع انتظارات المتقبل السمعية يؤدي إلى فهمها وإدراكها بشكل أفضل لذلك عندما تتمكن اللغة بالنفس وتسمو بها تصبح فنا وعندما تتمكن الموسيقى بالنفس وتلمس دواخلها تصبح لغة فلنا إذن أن نتساءل عن العلاقة بين لغة الموسيقى وموسيقى اللغة.

تشترك الموسيقى واللغة في المعالجة العصبية في نفس المنطقة الدّماغية وقد أثبتت عديد الدراسات[10] أنه يتم

[8] عطية صقر، موسوعة أحسن الكلام في الفتاوي والاحكام، الجزء الأول، المنهل، القاهرة،2011، ص.408.

[9] عاشور، ميلود مصطفى، مقاييس فصاحة اللفظ ومعايير بلاغة المعنى في التراث النقدي والبلاغي دراسة فنية تحليلية، دار نشر يسطرون، مصر، ص.126.

[10] Lopez louiza, Majno Maria, G. Avanzini, Carmine Faienza & Diego Minciacchi : The Neurosciences and Music, New York Academy of Sciences, USA, 2009, p.74.

معالجتهما بساحة بروكا من الفص الجبهي والتي تعد مسؤولة أساسا عن اللغة، وانطلاقا من هذا الشرح الدال يمكن أن نعتبر أن الموسيقى إن لم يتم إدراكها لفظيا تماما بنفس طريقة اللغة –وخاصة إذا ما اعتبرنا الأنماط الموسيقية الآلاتية– فهي من الناحية المقامية تخضع لنفس المنطق الدلالي لذلك تعتبر طريقا للتواصل في ظاهره غير لفظي ولكنه خاضع لنفس المنطق باعتماد نفس آليات التحليل الذهني. يؤثر مكان المقام في الجملة وما يحيطه من نغمات مغايرة على الفهم كما يؤثر في مكان التركيب اللحني والإيقاعي لدرجة أن بنية أي نموذج مصغر لحني إيقاعي يرتبط بما يحيطه من أشكال. ولهذا السبب تساعد الموسيقى الأطفال ذوي صعوبات التعلم والأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة والمتوحدين على التطور اللفظي وتحسين قدراتهم على التواصل وتحسين كفاءة الدماغ حيث أن هذه الاضطرابات مرتبطة باضطراب بعض النواقل العصبية مثل الأساتيلكولين[11] وحمض الجاما[12] والدوبامين[13] والسيروتونين[14] أو الدرئين وحيث تعمل الموسيقى على التعديل الطبيعي والتلقائي لهم.

ب– الدلالة الغير لفظية

تضم الدلالة غير اللفظية دلالتين صوتيتين، الأولى تتعلق بفونولوجيا الكلمة بينما الثانية تتعلق بموسيقية ونغمية الصوت الناطق للكلمة وما له من تأثير نفس موسيقي. وقد أخضعنا هذه الدلالة للبحث أولا في علاقة الأجراس الصوتية بإدراكنا للكلام وثانيا في موسيقية اللغة نفسها إن كان على مستوى نفس اللغة فيما يخص اللهجات العامية المنطوقة أو المقروءة وإن كان في إدراكنا للغات أخرى وهو ما يفسر ميل مجتمعات معينة إلى لغات دون أخرى وما يفسر أيضا قدرتنا على استيعاب التركيبة الموسيقية للغة قبل التمكن الفعلي من المفردات والقواعد النحوية فاكتسابنا للغة هو أساسا براغماتي وسميولوجي موسيقي قبل أن يكون نحوي أو سميولوجي لفظي أي قبل أن ترتبط الدلالة بالمعنى اللغوي للفظ فهي ترتبط بمعناه الصوتي.

ولك أن تقوم بهذه التجربة ببساطة:–

١– استمع إلى نفس النص باللغة العربية ولكن من أشخاص من جنسيات مختلفة ستدرك حتما الفرق بين القراءات وربما

[11] Flamberti M : « Psychogenèse et la thérapie de la schizophrénie », Bulletin de psychologie. Vol.4. Groupe d'études de Psychologie de l'Université de Paris,2007, p.362.

[12] Huskens Bibi : Begeleiding Van Kinderen En Jongeren Met Autisme : Van Onderzoek Naar Praktijk. Bohn Stafleu van Loghum, Dutch, 2007, p.281.

[13] Karli Pierre : Le Besoin de l'autre : Une approche interdisciplinaire de la relation à l'autre, Odile Jacob, France, 2011, p.133.

[14] Leboyer Marion : Autisme infantile : faits et modèles. Coll. Psychiatrie ouverte, Presses universitaires de France,2007, p.63.

تعرف جنسية القارئ فقط بمقارنة إيقاع ونغمة اللهجة المنطوقة مقارنة بقراءتك الشخصية.

٢- ومن هنا يمكن اعتبار أن مدى إدراكنا للغة يرتبط بقدرتنا على التحليل الموسيقي للغة إن كان من حيث التركيبة الإيقاعية أو الصوتية أو كلاهما وبالتالي تدعونا هذه المقاربات للبحث في تعلم اللغة بأسلوب موسيقي. أليس من الأفضل

٣- أن يتعلم الطفل اللغة بصوت شبيه بصوت أمه أو لصوت له أثر ما في تاريخه السمعي؟ أليس من المهم البحث في التركيبة الموسيقية اللفظية للغات؟ هي أسئلة ندعو إليها الباحثين في اللسانيات وفي العلوم الموسيقية للتفكير والتقصي حولها.

– الدلالة الصوتية

نقصد بالفونولوجي: المجال الصوتي للكلمة والخصائص الصوتية لكل لغة، ولعل من بين أهم مميزات اللهجة الموسيقية الخاصة بكل ثقافة والتي ترسم الهوية الموسيقية للمسموع هي التركيب اللغوي الذي يؤثر بشكل كبير في الألحان وفي اللهجة الموسيقية وفي التركيبة الإيقاعية بدرجة أولى ثم في النغم بدرجة ثانية، وهذا يدعونا إلى البحث التقني المتأني في هذا الموضوع بشكل مستقل وفي بحث آخر.

ترسم الفونولوجيا نوعا من المعاني الماورائية أو دلالات سمعية مرتبطة بالوحدات الصوتية داخل النسق اللغوي الواحد، و يرجعنا هذا الاعتبار للغة كمنظومة صوتية دلالية إلى البنيوية و تحديدا إلى سوسور[15] باعتبار أن اللغة منظومة دلالية قائمة على العلاقة بين الدال والمدلول والعلامة وهي نفس المنظومة المعتمدة في التأليف الموسيقي حيث تندمج الوحدات اللحنية ضمن نفس التركيبات الدلالية، وفي التركيب اللغوي الإيقاعي للنص القرآني يوجد إيقاع داخلي للكلمات مقترن ربما بتفعيلة الكلمة وبتواتر التراكيب الإيقاعية بطريقة تخلق نوع من التوافق التام للقارئ مع اللفظ فينسجم الإيقاع اللفظي العروضي للكلمة مع إيقاع القارئ الداخلي ليحدث توافقا تاما و علاقة هارمونية تآلفية مع النص. وبذلك عند الترتيل القرآني وخاصة بطريقة فردية وجهرية ترتبط وتتمازج فنولوجيا الكلمة مع تاريخ الفرد السمعي واللفظي والصوتي فتحدث أثرا جميلا كأن بالخالق من ناحية يتوجه لكل البشر ومن ناحية أخرى يتوجه لكل شخص بمفرده حسب تصوراته العقلية الخاصة.

– الدلالة النفس–موسيقية

هي دلالة تتوسط الدلالة اللفظية والصوتية بمعنى أن يلزم الدال المدلول دون أن يكون الدال ضرورة مطابقا ومتفق عليه من قبل المجموعة فهي علاقة قائمة على عمليات ذهنية وعقلية خاصة:

لكل مقام مقال هو مثل توارثه العرب قيل أنه عن الشاعر العباسي بشار بن برد الذي استعمله في إطار الثناء على طبخ «ربابة الجارية» [16] واصطلاحا يدل هذا المثل، من ناحية، على التنوع والكثرة ومن ناحية أخرى يدل على الذوق

[15] Saussure Ferdinand Mongin : Saussures 1st, 2nd and 3rd Course of Lectures on General Linguistics, Coll. Language & communication library, Pergamon, Paris, 1907.

[16] الاتحاد، 2014، ذكر في:
https://www.alittihad.ae/article

وعلى أهمية اختيار اللفظ المناسب في السياق المناسب وكذلك هو الحال في الموسيقى حيث ترتبط المقامات الموسيقية بأفكار وصور شعرية وصور حقيقية أحيانا بعضها جماعي مشترك مرتبط بالذاكرة الجماعية وبالموروث الشعبي وبعضها خاص مرتبط بتاريخ الفرد نفسه وثقافته الخاصة و خاصة عندما يتعلق الأمر بالثقافات العربية التي تتسم بتنوع وكثرة المقامات والنغمات. وعلاوة على ذلك فإن تغيير جملة من النغم قد يتبعه ولادة نغم آخر ورغم تقسيم النغمات إلى أصول وفروع إلا أنّها تعد بالمئات ولك أن تتخيل مثلا مائة لون وما يمكن أن يتفرع منهم عند دمجهم واحد بواحد أو بأكثر تلك المقامات العربية عند دمج عقودهم الأصلية لذلك يمكن أن يتفرع عن المقام أشكال كثيرة من كل نغم ولكل منها أثر في نفس المتقبل! ولهذا فإن مسألة تنغيم ووضع النص القرآني وفق مقامات معينة ليست بعملية عشوائية بل لابد أن تكون موضع اهتمام الباحثين ولابد أن يشعر القارئ بأثر كل مقام مع مراعاة اختلاف الأوساط والنغمات التي تعود عليها السامع مقارنة بجغرافية المنطقة وهو ما يحيلنا أيضا إلى إشكالية كنا قد اشتغلنا عليها منذ مدة وفي إطار رسالة بحثية وهي «الجغرافيا المقامية» [17]

وفي إشارتنا للتنغيم لا نقصد تلحين القرآن، وإنما يجب الأخذ بعين الاعتبار بأن وقع الصوت على الحرف له أثر روحي لا محالة.

يعتمد كل ترتيل على مسار مقامي معين من اختيار المقرئ، يتبع ثقافتة الموسيقية وذوقه وانتمائه الاجتماعي ولكن أيضا تجربتة الموسيقية الشخصية التي تصف طبيعة عيشه الاجتماعية وثقافته، بمعنى أن كل نغمة هي جزء من التاريخ الموسيقي للشخص.

لقد خص الله عز وجل الإسلام والقرآن الكريم بالتجويد والترتيل وبقية الديانات ليست بمنأى عن تجربة وضع الصوت على النصوص القدسية وكأنما هو فعل كوني لا مناص منه. تثبت المصطلحات اللغوية علاقة الموسيقى بطقوس العبادة في جميع الأديان، فنجد الترتيلة في المسيحية والترنيمة وهي» النشيد الذي يتغنى به في الكنائس المسيحية أثناء القداس وموضوعه الابتهال إلى الله وحده وشكره على نعمه »[18] ومزمار داوود وهي «ضرب من التّغني في التلاوة اليهودية يصاحَب أحيانا بالدفوف والآلات الموسيقية فيقوم رجل الدين الحسن الصوت بتلاوة الترانيم » [19] ونستنتج من ثم أن الممارسات الدينية ليست إلا دليلا على مدى تأثير الصوت في النفس.

[17] أسماء الماجد« الموسيقى التحديات الراهنة واستشراف المستقبل ،»مستقبل الموسيقى العربية ما بعد الأزمة، مؤتمر القاهرة، الدورة 29، دار الأوبرا، مصر، 2020، ص.10.

[18] عزت عياد علية ،معجم المصطلحات اللغوية والأدبية ،المكتبة الاكاديمية، القاهرة،1994 ، ص.235 .

[19] عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن عبد الله الحسن، أثر العناصر الأجنبية في فكر بعض الشيعة الاثني عشرية ،العبيكان للنشر، الرياض،2017، ص.416.

توقظ الموسيقى في الغناء تحديدا، خلافا للصور الذهنية المرتبطة بالكلام المغنًى، صورا ذهنية مرتبطة بالصوت في حد ذاته أي بذبذباته وارتفاعه وشدته وقوته فتمتزج بتاريخ الفرد السمعي بمعنى أن كل حدث صوتي منظوم أي لحني يمكن أن يحدث حدثا حقيقيا باستعمال الذاكرة بعيدة المدى فيثير أولا الفص الجبهي[20] من الدماغ كما هو مبين أدناه:

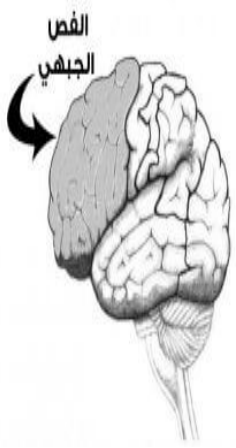

الرسم2: الفص الجبهي من الدماغ

كما تثير الموسيقى الجهاز الحوفي[21] الذي يتضمن مراكز الذاكرة والفص الصدغي بما فيه مركز السمع والذي يعد الأقرب إلى الذاكرة كما يبرزه الرسم الموالي:

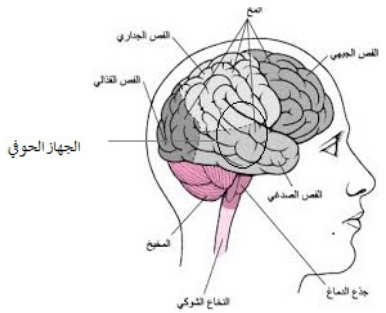

الرسم 3: الجهاز الحوفي والفص الصدغي

لذلك تعمل الموسيقى بالغناء أو بالاستماع على تحسين عمل الذاكرة ولذلك لا يفقد مريض الزهايمر القدرة على تتبع الموسيقى حتى آخر لحظات حياته لأن الذاكرة السمعية هي الأقرب إلى مراكز الذاكرة.

إن البحث في الذاكرة السمعية هو شكل من أشكال الاستذكار يحدث بعده تفاعلا نفسي يسميه جان دورينق ب«الحال»[22] وهو تأثير يرسم التجاوب الأقصى مع الموسيقى.

تسمى هذه الحالة من الذوبان في الموسيقى بالمغرب العربي بالتخميرة[23] وتظهر خاصة في الموسيقى الشعبية والصوفية وعند الوصول إلى مرحلة الاستمتاع ترتفع نسبة الدوبامين (115.APEL: 2003, p) في الجسد ويكون المتقبل في أحسن حالاته النفسية.

[20] Knight, T.R & DONALD T.S: Principles of Frontal Lobe Function, OUP USA, USA, 2013, p.777.
[21] Limbic system

[22] Knight, T.R & DONALD T.S: Principles of Frontal Lobe Function, OUP USA, USA, 2013, p.777.
[23] Transe

*** أي نوع من الموسيقى هو الأكثر تأثيرا؟**

عندما تصل الموسيقى لحد التأثير تعتبر علاجا بغض النظر عما إذا كان التجاوب سلبي أو إيجابي ذلك فهي تساعد الفرد على إخراج مشاعره المكبوتة، وتعتبر ايديت لوكورت أن العلاج بالموسيقى هو" استعمال الصوت بجميع أشكاله في علاقة مساعدة "(LECOURT: 2005, p .111) إن كانت موسيقى شعبية أو كلاسيكية قديمة أو حديثة بالغناء أو بالموسيقى الآلاتية فكل أشكال التعبير الموسيقي متاحة مادامت تتجاوب مع ذوق الشخص.

وبما أن العلاج بالموسيقى لا يخص فقط المرضى مثلما سلف ذكره فالأولى أن تكون هذه العلاقة بين المرسل والمستقبل بشكل عام مع الأخذ بعين الاعتبار درجة الأزمة أو الصعوبات النفسية التي يمكن أن يمر بها المستقبل وبذلك يصبح التعبير الموسيقي آداة وساطة ووسيلة ناجعة للتواصل الحر والتلقائي والذي يعتبر من الأهداف الأساسية للموسيقى كوسيط علاجي نفسي في الطب البديل، من هنا يتوجب على الوسيط الموسيقي أساسا دراسة قابلية المتلقي وتجاوبه مع الموسيقى ، وبالتالي فالموسيقى الأكثر فاعلية وتأثيرا هي التي تتماشى مع ذوقه الشخصي ولعل مسالة الذوق قد تشير في باطنها إلى دلالات اجتماعية ونفسية وجمالية عدة فتخاطب هذه الموسيقى خوالج نفسه وتلمس أبعد مما يستطيع أن يعبر عنه بالكلام وكما يقول فاغنير "تبتدأ الموسيقى عندما تعجز الكلمات".

ختاما إن ترتيل القرآن الكريم يخضع لنسق مقامي وموسيقي معين ويستعمل الصوت البشري كأداة للأداء وللتواصل مع الخالق سبحانه وتعالى وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار عمق الإسلام في الثقافة العربية والذاكرة الجماعية فلنا أن نتساءل عن إمكانية وأهمية العلاج بالقرآن كطريقة للعلاج النفسي في المجتمعات الإسلامية.

من المؤكد أن للموسيقى حقيقة فيزيائية لما يحمله كل صوت من خصائص أكوستيكية وحقيقة كيميائية مرتبطة بالمسارات العصبية وما يتبعها من تفاعلات فيزيولوجية وحقيقة جمالية لها علاقة بالإدراك وبآليات الاستماع والاستمتاع بها ولكنها أيضا هي تلك المادة الكيميائية التي تسري في الجسد وتؤثر على الجهاز العصبي والتي تكمن بين كل هذه الحقائق التي حاول القدماء إدراكها عندما أحاطوها بمعارف في مجالات عدة من الطب والفلسفة والرياضيات وربطوها بمناهج وعلوم عدة ولعل وجودها بين هذه الحقائق هي خير دليل على أنها المادة والجوهر الإنساني وهو ما شرع استعمالها منذ القدم وحتى اليوم كوسيط علاجي تواصلي وكآداة تعبيرية حافظت على مكانتها في جميع الأديان وجميع اللغات باعتبار اقتران الصوت بالتنغيم، الأمر الذي يحولها من مادة خارجية إلى أخرى داخلية تعبر عما يعجز عنه اللسان في التعبير.

*** المراجع**

أولاً– المراجع العربية

الاتحاد، 2014، ذكر في:

https://www.alittihad.ae/article

أسماء الماجد «الموسيقى التحديات الراهنة واستشراف المستقبل» مستقبل الموسيقى العربية ما بعد الأزمة،

مؤتمر القاهرة، الدورة 29، دار الأوبرا، مصر، 2020،ص.10.

عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن عبد الله الحسن، أثر العناصر الأجنبية في فكر بعض الشيعة الاثني عشرية ، العبيكان للنشر، الرياض،2017، ص.416.

عطية صقر، موسوعة أحسن الكلام في الفتاوي والاحكام، الجزء الأول، المنهل، القاهرة،2011، ص.408.

عزت عياد علية ،معجم المصطلحات اللغوية والأدبية ،المكتبة الاكاديمية، القاهرة،1994 ، ص.235 .

عاشور، ميلود مصطفى، مقاييس فصاحة اللفظ ومعايير بلاغة المعنى في التراث النقدي والبلاغي دراسة فنية تحليلية، دار نشر يسطرون، مصر، ص .126 .

ثانياً– المراجع الأجنبية

Apel Willi: The Harvard Dictionary of Music, Coll. Economics and Business Victorian Curriculum Series, Vol16. Harvard University Press, Havard, 2003, p.115.

Mathilde CHAGNEAU : une étude clinique sur l'efficacité de la musicothérapie auprès de personnes souffrant de la maladie d'alzheimer », paru dans Revue Française de Musicothérapie, Volume XXXVI, Les actes, « *Music'Al* », une étude clinique sur l'efficacité de la musicothérapie auprès de personnes souffrant de la maladie d'alzheimer, mis en ligne le 06 décembre 2017, URL : http://revel.unice.fr/rmusicotherapie/index.html?id=3672.

During, Jean: The Spirit of Sounds: The unique Art of Ostad Elahi (1895-1974), Cornwall bookes. USA, 2003, p.83.

Flamberti M : « Psychogenèse et la thérapie de la schizophrénie », Bulletin de psychologie. Vol.4. Groupe d'études de Psychologie de l'Université de Paris,2007, p.362.

Huskens Bibi : Begeleiding Van Kinderen En Jongeren Met Autisme: Van Onderzoek Naar Praktijk. Bohn Stafleu van Loghum, Dutch, 2007, p.281.

Jacques Jost, Jean Guilhot, Marie-Aimée Guilhot. Musique psychologie et psychothérapie : vers de nouvelles techniques de deconditionnement et de developpement de la creativite personnelle. Collection des sciences humaines appliquées : l'art de la psychothérapie Collection des sciences humaines appliquées. Éditions sociales françaises, 1964.

communication library, Pergamon, Paris, 1907.

Scimec Daniel& Tétau Max : Votre santé par les huiles essentielles : simple et pratique, le guide des huiles essentielles au quotidien, Alpen Editions s.a.m,2005, p.94.

Seikel J.A, King, D.W & Drumright, D.G.: Anatomy & Physiology for Speech, Language, and Hearing, Cengage Learning, USA, 2009, p.816.

Werner, Own & Dancan: Executive control and the frontal lobe, Springer, Berlin, 2000, p.26

Numérisé 11 sept. 2008, l'Université de Californie.

Karli Pierre : Le Besoin de l'autre : Une approche interdisciplinaire de la relation à l'autre, Odile Jacob, France, 2011, p.133.

7/ Knight, T.R & DONALD T.S: Principles of Frontal Lobe Function, OUP USA, USA, 2013, p.777.

Leboyer Marion : Autisme infantile : faits et modèles. Coll. Psychiatrie ouverte, Presses universitaires de France,2007, p.63.

Lecourt, Edith : Découvrir la musicothérapie, collection Eyrolles Pratique, Paris, 2005, p.111.

Lopez louiza, Majno Maria, G. Avanzini, Carmine Faienza & Diego Minciacchi : The Neurosciences and Music, New York Academy of Sciences, USA, 2009, p.74.

Parrouty. J : Stress et burnout : Renouveler son intelligence gérer ses émotions et mieux vivre, presses lulu, 2014, p.154.

Saussure Ferdinand Mongin : Saussures 1st, 2nd and 3rd Course of Lectures on General Linguistics, Coll. Language &